مضارب فى سوق الحب

الشباب كله قلب ، ولكن فى الاغلب لاعقل له !..

هذه هى الفكرة التى سيطرت على خيالى وانا اطل من شرفة فندق « فوريجن » من ارتفاع ٩٠٠ متر — على بحيرة لوسرن الساكنة الجميلة ، وافكر لاشياق ذلك الشاب الشرقى الوسيم الذى كان فى الشرفة منذ هنيهة ، تضوى فى خنصره الايسر ماسة ضخمة ، ويتضوع من شعره الفاحم اريج عطر مجهول ، ويتألق هو نفسه — كانه ابن مهراجا — ولكن بلألاء الصحة والعافية والشباب ...

ان اثنين من المدافع الربانية لرشاشة ظلا مصوبين الى قلبه بضع دقائق ، من عينى انثى شقراء ، كانت هى كذلك تجلس منذ هنيهة بشرفة الفندق ، وما اكثر الشقراوات فى فندق فوريجن ... من كوبنهاجن ومن جلاسجو ومن لندن ، ومن فيلادلفيا ومن زيوريخ ، ومن لوسرن ، ولكن هذه الشقراء بالذات كان لعينيها فعلا لون الرصاص وفتك الرصاص ، وعندما رأيتها وهى تسدد طلقات مدفعيها باحكام ، أيقنت ان المسكين لن يقاوم ، فقد كانت الطيبة تنبع من تقاطيع وجهه السمح ، وكان قلبه الغرير يطل من عينيه ... قلب طفل اعزل من السلاح — او هكذا بدا لى — مجرد من الابراج والحصون ..

ولما انسحبت الشقراء الفاتنة ، وانسحب الشاب الشرقى الوسيم وراءها ، تنهدت . . . وقلت : امرأة موفقة ! !

obeikandl.com

ثم تشاغلت عنهما بالتأمل فى وجه البحيرة ، التى تبدت صفحتها كالمرآة ... والتى استودعت كالمرآة اسرار ملايين من البشر ، فلم تبح قط بسر مخلوق ...

ووجدتنى فى النهاية احلم .. واقول ما احلى الشباب ! . . ان الشاب يشترى الحب بزهر قبل ربما اشتراه بلا ثمن ، والكهل يشتريه بورقة بنك نوت . . . والعجوز يشتريه بوصية ... وقبل ان استرسل وجدت نفسى تفهقه سخرية منى وتقول : « ياغبى ! .. انها سوق كل الاسواق تؤثر فيها الاعيب القدر ، ومناورات المضاربين ، وغفلة اتباعة والمشترين . . . ومع ذلك فمالك ولهذا ، قم فخذ دواءك وتعش ، وتمرغ فى السرير كالعجل كما امرك الطبيب ! ! »

* * *

ان الوجه الاشقر ذا العينين الرصاصيتين قد اختفى من حياتى الى الابد — كزورق قابلته فى الظلام ...

والشاب الشرقى الوسيم انقطعت عنى اخباره سبعة ايام ، وكدت انساه ، برغم قصة سمعتها هنا عن فرنسى مسن ، اقتادته شقراء فاتنة الى قمة جبل برجن شتوك ، ووجد فى اليوم نفسه ميتا بذبحة صدرية فى منتصف الطريق ، ومجردا من كل شىء الا من اوراقه الشخصية ، وبضعة فرنكات احسبها تركت فى جيبه ذر الرماد فى العيون ، ومن سوء الحظ انه لا يوجد قانون فى العالم يستطيع ان يشم رائحة القتل العمد فى مثل هذه الظروف ، وما كان يسع اى محقق — ولو كان شرلوك هولمز نفسه — الا ان يشكر الشقراء الحزينة ، وهى توقع بدموعها الحارة على اجابتها الكنائسية فى محضر التحقيق ..

ولكن الشاب الشرقى الوسيم لا يمكن ان يكون مريضا بقلبه ، فهو شاب ، وقوى ، وفى طابع رجولته ما يوحى بشىء من

الاتزان ، وما اظنه يخسر راس ماله ، وحياته أيضا ، بهذه السهولة ، مع ذات المدافع الرشاشة فى سوق الفرام .

اقول ان الشاب الشرقى الوسيم اختفى عن نظرى سبعة ايام ، ولكنى فى اليوم الثامن رايته فى الشرفة .. رايت ابن المهراجا من جديد .. بيد انه كان شيئا اخر يختلف تماما عما كان ...

ان مكان قلبه المطل من عينيه احتلته نظرة قلق وخوف وتشاؤم ، والوجه الذى كان يشرق بالصبا والبشر والطلاقة قد شاخ قليلا ، ونحف واصفر ، وعلاه الوجوم . كان ينقر باصابعه على المائدة التى أمامه ، ويعض شفته السفلى باستمرار كانها هى التى اوحت له ان يجازف ويدخل السوق ، وينظر نظرات شاردة قلقة هنا وهناك ، ثم يضغط راسه بيديه كانه يداوى فيه صداعا او يمنع مخه من الطيران ... وبين الحين والحين تقذف شفتاه كلمة باللغة العربية - من دون اللغات جميعا فى فندق فوريجن - كلمة كطلقة المسدس الصامت .. ياالله .. يا الله ! ! !

والادهى من كل ذلك ان الماسة التى كانت تضوى فى خنصره الايسر لم تكن هناك ..

كان بكلمة واحدة اشبه ما يكون بمضارب افلس فى السوق !

* * *

قال الشاب مذعورا وانا أترفق جهدى واضع يدى على كاهله :

- من انت ؟؟

قلت بهدوء : انسان يتكلم بلغتك . . وربما أيضا يصلى لالهك .. واظن هذا يكفى الان

وكالحيوان المطارد الجريح اراد ان يقاوم ، ولكن قواه خانته فى لحظة ، وتلاشت ، فاختلج هنيهة واخضلت عيناه بالدموع

وبعد فترة سكوت قال وهو يمسح عينيه بمنديله ، ويضحك ضحكة الشمس فى سماء عابسة :

ـ انها اول مرة احس فيها حاجة حقيقية للبكاء ..

قلت وانا اتعب بسلسلة ساعتى ولا انظر اليه ..

ـ ماذا صنعت بك ؟؟

قال : من ؟؟

قلت : الشقراء ...

فتضرجت وجنتاه قليلا وقال مستريبا : اتعرفها ؟

قلت : كلا اطمئن .. ولكنى كالفلكى الذى يرقب النجوم من بعيد !.. ماذا صنعت بك ؟؟

قال : لاادرى .. انى مازلت مضطربا .. لقد ادخلتنى الجنة سبعة ايام ، ثم سافرت فجاة ، فصحوت كالذى استيقظ بغته من غيابة حلم سعيد ..

قلت وانا ابتسم واتطلع الى عينيه تطلع المشفق : وهل دخل الجنة احد ومكث خالدا هناك ؟ . قل لى : اهذا كل شىء ؟؟

قال وهو يرخى عينيه : ويتشاغل بتامل انامله :

ـ قلت لك انى مضطرب ، لا أستطيع التفكير .

ولا بد ان نفسه كانت حقيقة مسرحا لمعركة عنيفة فى هذه اللحظة ، تصل آثارها ، واخبارها متتابعة الى وجهه ، وتتواتر عليه كانفلال .

فانتظرت قليلا واعدت السؤال :

ـ أهذا كل شىء ؟ ؟ .

فانطلق لسانه من عقال ، واندفع كانه انتصر فى اخر لحظة على الخجل الذى كان يمنعه من الكلام ، وقال ووجهه يزداد توردا :

ـ هل جربت فى حياتك ان تبيت أمنا ، شبعان ، ريان ، ثم

وانسحب الشاب الشرقي الوسيم وراءها

تصحو غريبا فى البلد النازح . شاعرا انك مفلس جائع طريد ؟؟

فقلت له باسما ودون تكلف :

ـ جربت اكثر من هذا ... جربت الجوع ثلاثة أيام ... وصحوت ذات يوم من نومى فى ادنبره ـ وبينى وبين بلادى ... ٤ ميل ـ لاجد فى جيبى بضعة بنسات لا تكفى حتى الافطار .. وخرجت ذات مرة من صوفر فى لبنان ، فسافرت الى بيروت ثم الى حيفا ثم الى القاهرة ، وفاتنى القطار فى الطريق : وقضيت ٤٨ ساعة عشت فيها على عنقود من العنب ومررت فى أثنائها بقارتين وثلاث ممالك : ولا احسبنى يومئذ نظرت الى الحياة من هذا المنظار الاسود الذى تنظر اليها منه الان ..

فانفرجت أسارير الشاب قليلا وتنفس الصعداء ، وقال وقد خيل لى أن ريقه يجف ، وصوته يستحيل الى همس :

ـ أتستطيع أن تقرضنى مائة فرنك لثلاثة أيام ...

قلت : نعم ! أستطيع

قال : ولا تظننى محتالا ؟ ؟

قلت : كلا ... أن للمحتال وجها غير وجهك هذا ، وصوتا أعلى من صوتك . وقد عرفت منذ أسبوعين اثنين : واحدا من أثينا فى جنيف ببيت مدام كونيار . . ان لسانه عذب كالينبوع ، منطلق كالشلال ووجهه لايحمر ابدا ، وقد أحاط نفسه باطار أنيق فخم كأستاذ اللغات ، ولو وجدنى أنا نفسى قويا فى اللغات لجعل نفسه أستاذا فى الطب ، وعرض على فى أول جلسة أن يعلمنى البريدج والرقص والسباحة واللغة الفرنسية الاصيلة أيضا بلا ثمن ، ودهشت جدا كيف يخلو وقت « عريس » فى شهر العسل ـ كما قال لى وهو يشير الى الحسناء التى كانت تصحبه وتؤمن على كل مايقول ـ لكل هذا السخاء يمطره على غريب . . . وزالت دهشتى عندما أخبرنى بمأساة تأخر ورود النقود اليه من أثينا ، وقد أودعت له هناك فى البنك منذ

بضعة أيام . ولم أعجب بعد أن أخبرته بشيء من البرود الممتزج بالرقة ، أننا ـ هو وأنا ـ في نفس الزورق من حيث موقفنا المالي ، لم أعجب عندما تجاهل فجأة هو وعروسه الجميلة ، وجودي في بنسيون مدام كونيار ، وراح يبحث عن نزيل آخر يعلمه الرقص والبريدج والسباحة واللغات ! !

وقال الشاب الشرقي ضاحكا . اذن ستقرضني المائة فرنك ؟ .

قلت : نعم .

قال : اني مستعد أن أكتب لك بها سندا .

قلت : لاتكن صغيرا . . ما قيمة هذا السند اذا كنت تنوي الاحتيال

قال : خذ ساعتي رهنا اذن . وبدأ يفك عن معصميه اسورة ساعة ذهبية ، فامسكت بيده لمنعه ، وأنا أتعجب في نفسي ، كيف أخفيت هذه الساعة من مراقبة الماسة الضخمة ذات البريق الخلاب ! ؟ ؟

ثم قلت له :

ـ اني أضعت مئات كثيرة من الفرنكات وليس يهمني أن أضيع مائة أخرى ، اني أشتري القميص والرغيف ، والورقة ، والدبوس وقد اشتريت نوتة بعشرة فرنكات . . فلم لا أشتري بمائة فرنك درسا من دروس الحياة ؟ لا .

قال : اذن تعطيني المائة فرنك هكذا بلا قيد ولا شرط ؟ . .

قلت : بل بشرط واحد . . .

فبدأ القلق يتجلى في وجهه مرة أخرى وقال في لهجة الملهوف :

ـ وما هو ؟ ؟

قلت : أن تقول لي كيف وصلت الى ما أنت فيه الآن . .

* * *

كنت متوقعا حكاية طويلة ، ولكن الشاب الشرقي الوسيم ، لم يشبع في نفسي هذا الفضول ، وروى قصته بمنتهى الاقتضاب عندما قال يرد على سؤالي :

obeikandi.com

ـ لا أعلم . . ان عيونها كهربتنى فاختبلت ، وعندما سألتها ، اذا كانت تعرف الانجليزية ، وأجابت بالايجاب أشعرتنى بابتساماتها المشعشعة وبدون كلام ، أنها لاتدعونى لاتبعها فحسب ، ولكنها كذلك تعطينى مفتاح غرفتها لادخل فى أى وقت اشاء . . . هذا كل شىء

قلت : هل طالبتك بمال ؟ ؟

فأجابنى مشمئزا : أنك معذور لانك لم تعرفها مثلى ، ولم تعاشرها سبعة أيام . .

قلت وأنا أتجاهل اشمئزازه :

ـ أعذرنى اذا الححت عليك فلى فى ذلك أرب . . . أن المال لايطلب على الدوام بكلمة هات . . ألم تشعرك بأنها فى حاجة الى مال

وهنا تردد الشاب لحظة ثم قال بعد تفكير قصير :

ـ ربما . . . لا أدرى الا أنه مجرد اتفاق . .

قلت : زدنى بيانا . . . أرجوك

قال : فاتورة حساب اقامتها بالفندق يوم عودتها الى زيوريخ

قلت : اهى من زيوريخ ؟ ؟

قال : نعم . .

قلت : فى زيوريخ يتكلمون الالمانية ، هل تعرف الالمانية أنت أو تفاهمتما بلغة العيون ؟ ؟ قال : انها تتقن اربع لغات

قلت : وقد وجدتنى اصفر بفيروعى : ـ عظيم ! ! !

قال : أفى هذا مايشينها فى نظرك ؟ ؟

واردت ان اقول له نعم المرأة التى توجد وحيدة فى فندق وتحب من اول نظرة وتتقن اربع لغات لايمكن ان تكون تعلمتها فى كنيسة ، ولا بد انها اشتركت على الاقل فى اربع قصص غرام مع اربعة ابطال مختلفى الجنسيات . . . هذا اذا لم تكن بطبيعة الحال طالبة فى كلية آداب ! ! . . ولكنى خفت ان اجرحه اكثر مما هو جريح ، وتجاهلت سؤاله ، وقلت وانا ارجع به الى الموضوع الاصيل :

ـ هل قرأت فاتورة الحساب ؟؟

قال . انها هي قراتها امامي . قلت : ببطء طبعا ؟ ؟

قال : نعم .. قلت : وطـوتها ببطء ؟ ؟

قال : نعم ...

قلت : وكادت تضعها في حقيبة يدها لولا ان حدث الشيء الذى كان لابد ان يحدث ..

قال : أى شيء تعنى ؟ ؟

قلت : الكرم الشرقي الاصيل .. كرم معن بن زائدة او لعله هرم بن سنان الذى كان يضع نفسه في كفه ، ويعطيها لاول سائل ! اعنى انك خطفت منها الفاتورة خطفا ، ودفعت الحساب ؟ ؟

قال : وقد استحال وجهه كله لي لون قان كالدم ..

ـ الواقع ان هذا هو ماحدث تماما ..

قلت : الم تحتج على الاقل .. الم تحاول منعك .. الم تفعل شيئا ؟

فلم يحر جوابا ... وانمـا زاغت عيناه في الفضاء .

قلت :

ـ طبعا كان السكوت ابلغ .. وقد منحتك ابتسامة ارق مـن غلائل الورد ، واتكاءة حلوة على الساعد ، وقبلة طـويلة ايضـا حتى قبل ان تغيبا عن الانظار ؟ ؟

فازداد وجهـه حمـرة وقال عيناه الى الارض : لـكأني بك كنت معنا ! ! ؟

قلت : ربمـا ... كـم كانت قيمة الفاتورة ؟

قال : ٤٢٥ فرنكا ...

قلت : ثمن فادح من اجـل سبعة ايام ..

قال : لست نادما على شيء

ثم بدا له ، وكان برقا اومض في رأسه فجأة ، فعبس وجهـه

واكفهر ، وامتلأت عيناه بالسحاب وهو يشخص بهما الى خنصره الايسر ويقول :

ـ اتظنها محتالة ؟ ؟ اعنى هل يمكن ان تكون من ... من ... هؤلاء ؟ ؟

قلت : ان «هؤلاء» درجات .. من يدرى ؟ ...

ثم ألقيت القذيفة التى كنت انكر فيها ، بلا مقدمات :

ـ أين الخاتم الذى كان يضوى فى يدك منذ سبعة ايام ؟ ؟

فارخى الشاب عينيه ، وقال فى صوت حزين : فى هذا كنت أتأمل ..

قال : لقد كنت فكرت ان ابيعه هنا واستعين بثمنه على مد اقامتى ثلاثة او اربعة شهور ..

قلت : وكاشفتها بهذه الرغبة ؟ ؟

قال : نعم ...

قلت : فما كان رايها ؟ ؟

قال : انها قالت لى لو ذهبت الى زيوريخ لوجدت فيها سوقا عظيمة للماس

قلت : ولماذا لم تذهب ؟

قال : وكيف كنت استطيع وقد اصبحت بعد دفع حسابى، هذا كذلك ، وليس معى الا بضعة فرنكات ...

قلت : فاعطيتها الخاتم ... قال : نعم لتبيعه هناك

قلت : هل حددت لها ثمنا دنى ؟ ؟

قال : نعم ٣٠٠٠ فرنك ، ولكنها قالت انها واثقة انها ستبيعه على الاقل باربعة آلاف

قلت ـ وتعود اليك بطبيعة الحال ؟ ؟

قال : هكذا قالت ...

قلت : فماذا فعلت عندما اعطيتها الخاتم .. تذكر جيدا !

قال : لم تفعل شيئا الا ان عينيها برقتا كبريق الماس ، ثم

قالت وهى تقبلنى ... ان هذابديع منك جدا ان تأتمننى ، انا الغريبة عنك ، على مثل هذاالكنز الثمين ... فقلت لها وانا احتضنها : انى أأتمن الطبيعةالبشرية على الدوام فكيف لا أأتمنك أنت ؟ ؟

ولم املك نفسى من الضحك، فقال ممتعضا : لماذا تضحك ؟ ؟

قلت : عفوا ... انما اضحكمن امانة الطبيعة البشرية ... انى اعرفها منذ زمن طويل ...واعرف الغلالة الملائكية التى تسدلها عند الضرورة على جسدها البشع المجذوم ! !

وشىء ما فى كبرياء الشاب العربى المسكين ثار وتمرد ، فقال غاضبا :

ـ أعرفها كما تشاء ، أنى واثق أن النفس البشرية لاتلؤم الا اذا عوملت بقسوة ، أو جهلت من تعامل . ولو علم السارق ظروف من يسرق لتردد مرة على الاقل فى كل ثلاث مرات ... ثم أنك لن تذلنى بهذه المائة فرنك ! !

واضطررت أن أمسك به وهو يهم بالوقوف ، وقلت له أقسم أننى لايهمنى الا أن أنصحك قدرما استطيع ... هل أنت طالب فلسفة ؟ ؟

قال : كلا بل خريج آداب ..

قلت : ماأقرب المشترى من المريخ ! . .

ومضت لحظات قال بعدها قلقا :

هل تظن أنها تغدر بى ؟ ؟

قلت : من يدرى ؟ . . أن القدر أحيانا يصنع العجائب فى سوق الحب . . وان لم يتدخل بأعجوبة اليوم فالاغلب أنك لن تراها ، ولن ترى الخاتم بعدالآن . .

قال : ولكننا افترقنا على خيرمايفترق العشاق ...

قلت : أكنت تتوقع من امرأةاخذت منك ٤٢٥ فرنكاسويسريا ، وخاتما من الماس ، بربعة آلاف أن تمتعت بزهور شبابك سبعة أيام

... هل كنت تنتظر منها أن تضربك يوم الفراق بالقبقاب ؟. بعد قال فى شبه زمجرة مكتومة :

ـ اننى أعرف عنوانها فى زيوريخ ..

قلت : أن الصدق لم يكن الفضيلة الكبرى للص ولا لفاجرة يوم من الايام ...

قال : وقد انقلبت عيناه الواديعتان فأصبحتا كنافذتين فى فرن ، يتطلع منهما الفران الى النار ..

ـ اعطنى المائة فرنك . فأعطيته اياها ...

قال : سأذهب الى زيوريخ وأقسم لو وجدت ظنونك فى محلها ، أن أعثر عليها ولو كانت ابرة فى حمام .

قلت : هبك وجدتها .. وهبها شاءت أن تنكر ، فان كلمتك لن ترجح كلمتها أمام أى قانون .

قال : انى بدوى ، وما نام لى جد على ضيم قط ...

قلت وقد بدأت أقلق :

ـ لكن ماتصنع هناك يومئذ وأنت غريب ؟ ..

وكدت أقول « ومفلس » ولكن الكلمة وقفت على شفتى فى الوقت المناسب ...

قال : اطمئن فسأعرف ماأفعل هناك ...

قلت : ألا يوجد لكم قنصل هنا أو سفير ؟ ؟

قال والدهشة فى وجهه : لماذا ؟ ؟

قلت : ألفه اذا لم تعد أنت أو جثتك من زيوريخ الى جنيف فى ثلاثة أو أربعة أيام ...

فضحك الشاب الشرقى الوسيم وما أقل ما أضحكه هذا الحديث وقال : لماذا أنت متشائم ؟ ؟ ..

قلت : من زمن مديد شهدت رواية فى السينما عنوانها «طريق الجسد » ... تدور حول رجل رب أسرة ووالد أولاد ... كان سعيدا جدا ، ومستقيما جدا ، ورجلا عظيما من رجال المال ..

وكلف ذات يوم من البنك الذى يشتغل فيه بحمل مليون جنيه الى بلد بعيد ... وهنـاك لقى شقراء ذات عيون تشبه الرصاص .. وفى ظرف بضعة أيام كان المليون قد سرق وكان البنكر العظيم يتمرغ فى الوحل ...

قال الشاب ، وهو شاخص ببصره فى البحيرة :

ـ لاتخف .. انى لست عجوزا ولا رب أسرة .. ولا أبا لأولاد .. ولا انا بنكير ... انى سأذهب الى زيوريخ ، والقاها كحبيب لم يصبر على فراقها ثلاثة أيام وسوف لا أحدثها مطلقا عن الماسة الضخمة اذا لم تبدأ هى الحديث بل على النقيض سأقدم لها هدية جديدة ...

قلت مذهولا : أية هدية ؟

قال : الهدية الوحيدة التى تستطيع أن تقلب خطط أية امرأة فى الوجود

قلت : لا أفهم ...

قال : مفتاح قلب المرأة على الدوام ...

قلت : زدنى ايضاحا

قال : سأشترى لها خاتم زواج ! ! !

وفهمت فى النهاية مايعنى .. فقلت له : هل تنوى الانتحار ؟

قال : كلا ... انى قد أكون غرا ، وساذجا ، ولكنى مع ذلك أعلم أن بين الخطبة والزواج أسبوعا أو شهرا أو عاما ـ قدره ماتشاء ـ تعطى فيه المرأة أكثر مما تأخذ ، وتخلع فيه حتى ثياب البغى ، لترتدى مسوح القديس

والظروف قد تخلق عقلا للشباب فى بعض الاحيان ! !